تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة السادسة

العصرية في الفكر والاقتصاد العربيين

نحن مرة أخرى مع مكسيم رودنسون.

ونحن معه في هذه المرة لنقول رأينا في ظاهرة العصرية أو الحداثة التي أصبحت الشغل الشاغل لعقول كل الناس ولا سيما في أقطار الشعوب النامية .

الشيء الثابت أن كل الشعوب النامية راغبة رغبة جدية في تقليد الشعوب المتقدمة في التقنية والاقتصاد. ولكن هذه الشعوب لا تلبث بعد كل محاولة للحاق بمن يتقدمها حتى تسقط في الفشل.

إن مئات من المعضلات الكبيرة والصغيرة تواجه الشعوب النامية منذ تشكل واقع دولي اقتصادي اجتماعي ثقافي ، اسمه " واقع الشعوب النامية " ..

ومما يلفت النظر أن تعاقب السنين لم يساعده على وضع أي حل أساسي جذري لمشكلات التخلف والرجعة رغم كل الجهود الرسمية التي بذلت في الميادين الدولية والداخلية لكل شعب من هذه الشعوب.

ولذلك أصبحت العودة إلى أبجدية المشكلات ومعضلاتها الابتدائية أولية من أوليات الفكر الثوري عند العرب المحدثين.

وبهذه العودة التي تفرض نفسها فرضاً في غير هوادة واعتدال تواجهنا أسئلة كثيرة تطلب إجابات مرضية مقنعة.

1) هل أن فشل الجهود عائد الى طبيعة الشعوب النامية وأخلاقها وطريقة تفكيرها ؟

2) وإذا صح هذا فهل يمكن أن تتحرر الشعوب النامية من عقليتها الرجعية وأن تخرج من جهالتها المعتمة؟

3) وإذا كان التحرر والخروج أمرين محتملين فهل لمواقف الشعوب المتقدمة من الشعوب النامية تأثير مباشر في تحقيقها ؟

4) وإذا صح أن للشعوب المتقدمة تأثيراً خاصاً فهل أخلصت هذه الشعوب أو يحتمل أن تخلص في مساعدة الشعوب النامية ؟

5) وإذا لم تكن الشعوب المتقدمة مخلصة في نياتها فهل يمكن التغلب على المعوقات التي تطرحها في طريق المتخلفين ؟ ..

هذه الأسئلة وغيرها كثيره تواجهنا في كل ندوة منعقدة لمناقشة ظاهرة التخلف فنشعر أمامها بما يشعر به المرء أمام عالم من المجاهيل التي تحيط به من كل جانب .

ولكن هذا لا يمنعنا من تقرير بعض الحقائق وتسجيل بعض الملاحظات التي نرجح صحتها بالنسبة للحلول المحتملة .

أولا : الشيء الثابت أن السبق الذي سجله الغرب في مضمار التنافس على تحقيق المكاسب والمنجزات هو ظاهرة واقعة لا ترد ولا تناقش ولا يختلف فيها اثنان.

فالشعب العربي قد فقد عقلية المبادرة والشجاعة على الاستجابة لتحديات الجهل والفقر والموت منذ قرون . وفي وسعنا التأكيد بأن القرن السابع عشر على الأقل كان الفترة الزمنية التي بدأت فيها الحرية العربية تتراجع في سرعة مذهلة . فكأن قوة سحرية قد زايلت العالم العربي الإسلامي منذ تلك السنوات المتقدمة فتغير بها التوازن العالمي لمصلحة الأوروبيين أولاً والغربيين ثانياً . أصبحنا منذ ذلك التاريخ أسرى التقليد ولم يعد يظهر بين أفراد شعبنا غير الأقزام أصحاب الأفكار الصغيرة.

الإيمان تحول إلى طقوس .

والأدب فقد محتواه فأصبح لعبة ألفاظ.

والفكر بات عملية اجترار ممل متعب.

والعلم تحول من إرادة للمعرفة إلى وقائع نحفظها ونرددها كما نردد الأوراد.

أما التقاليد الاجتماعية فقد رفضت كل تغيير واتخذت ظاهرة الجمود في كل ثقافتنا القومية.

ومع ذلك فقد كنا نخدع أنفسنا ونفكر تفكير الأغرار كلما جاءت مقارنة تضع عالمنا أمام عالم الأجنبي الذي لم نعد ندرك من صوره غير الصورة المتخلفة القديمة التي كانت له خلال الحروب الصليبية.

ثانياً : عندما تصبح هذه الواقعة في أذهاننا وفي الخارج فإن من الطبيعي أن نتساءل عن احتمالات التحرر من عقليتنا القديمة والخروج من عتمة الجهالة . وأن نكشف أن هذه الاحتمالات حقيقة ممكنة جداً. وإنّ ما أصبنا به ليس أول إصابة ولا آخر إصابة نزلت بنا وبغيرنا من الشعوب . وإن الدنيا دول يوم لنا ويوم علينا. فكما نحن منذ القرن السابع عشر كان العالم الغربي قبل ذلك القرن.

إنها الظاهرة الجدلية التي حققتها بحوث الغربيين في ميدان التناقضات الاجتماعية بل أن مفكراً يونانياً كهيراقليطس قد وجد هذه الجدلية في واقع الطبيعة والكون كما وجدها في واقع الإنسان نفسه. "كل شيء يجري ويتبدل ، حتى في أشد أنواع المادة سكوناً وثباتاً . هناك سيولة وحركية .. ومن خلال الصراع تنشأ جميع الأشياء وتبيد والحرب هو أبو الأشياء جميعها ومليكها المتحكم ". هذا نص منسوب إلى هيراقليطس اليوناني وهو تصوير صادق لواقع الإنسان عبر التاريخ.

ثالثاً : لكن الحركة والسيولة في مواقف الشعوب وأفكارها موصولتان بالعلاقات القائمة بين بعضها والبعض الآخر . فللشعوب الغنية المتقدمة ذات الاقتصاد المتين والقدرة الفائقة على الاستجابة للتحديات تأثير مباشر في تحقيق ظاهرة التحرر عند الشعوب النامية أو في رفض هذه الظاهرة وتجميدها.

إن العجز الذي بدأت تشكو منه الشعوب النامية ، بما فيها الشعب العربي ، في بناء اقتصاد قوي وإعداد أجيال متفتحة وتقرير مصيرها في خط الرفاه والكفاية الذاتية وحسن استغلال الثروات وتأييد مبادىء الحرية ، ليس عجزاً نابعاً من طبيعة هذه الشعوب وحسب بل هو نتيجة لخطط التجميد الموضوعة من قبل الأجانب الأقوياء .

إن الظاهرة التي تصفع المراقب هي أن الأمم لم تستقل يوماً من الأيام في صنع ظروفها الاقتصادية السياسية الاجتماعية والثقافية . فالمفاعلات بينها مستمرة والتأثير والتأثر بين قواها لم يقفا في فترة من فترات التاريخ ما لم تختر إحدى الأمم الخروج من التاريخ والانطواء على نفسها، أي ما لم تقرر العمل بخطة انتحارية تحرمها من نور العقل وتمنع عنها الهواء الصحي النظيف وتجمد طاقاتها الكامنة.

فالجدلية التي تعني المفاعلة والتنافس هي حقيقة إنسانية في داخل الشعب الواحد كما هي في داخل الأسرة الأممية بكامل أعضائها.

إن الحياة لا تقبل العزلة ولا تحترم الضعفاء المحرومين من الشجاعة والباحثين عن الراحة. إنها متعة معجونة بالتعب موصولة بعرق الجباه . إنها بعبارة أخرى مغامرة تختار العيش في الخطر الدائم.

رابعاً : والملاحظ أن الشعوب المتقدمة لم تخلص في تقديم يد المساعدة إلى الشعوب النامية ذلك أن الأقوياء أصحاب الاقتصاد القوي يضعون التشريعات وينظمون العلاقات الدولية ويخططون مشروعاتهم في ضوء الحفاظ على تفوقهم ومن أجل استخدام المتخلفين لتحقيق مزيد من التنمية الاقتصادية لهم وتوفير المزيد من الظروف السياسية والاجتماعية الملائمة لهم.

وتصح هذه الملاحظة رغم المنظمات الدولية التي أنشئت بنشوء هيئة الأمم المتحدة وعلى الضد من التصريحات والبيانات والنشرات التي صدرت وتصدر توكيداً لخطة العون التي ترمز إليها هذه المنظمات.

وقد يحاول أنصار هذه المنظمات من قادة الشعوب المتقدمة أن يناقشوا هذه الحقيقة ويردوا الحجج التي ندلي بها . والقول الفصل في هذا الحوار هو في الوقائع نفسها.

الوقائع تقول : إن فقر الفقراء يزيد بينما ينمو غنى الأغنياء . وليست الأزمات العالمية بين الشعوب النامية والشعوب المتقدمة غير النتيجة الطبيعية لهذا التباين المطرد بين الفريقين.

إن ما تقدمه المنظمات الدولية تأخذه السياسة.

وإن ما تحققه التصريحات العلنية ترفضه وتقضي عليه الاتصالات التي تجري وراء الستار.

وإن ما يقدم باليمين ينتزع باليسار.

السبب في ذلك هو انتقاء حسن النية والأخلاق التي يشكلها الاعتقاد في " الندرة الاقتصادية " ، إذ كيف يمكن أن يخلص الأقوياء في مديد العون إلى الشعوب النامية وهم الذين يتصرفون تصرف المؤمن بعدم كفاية الرزق لكل شعوب الأرض . وإذن فإن من الطبيعي أن تكون سياستهم سياسة المتكالب على اختزان أكبر قدر من هذا الرزق وأن تكون خطتهم خطة تجميد الفاعليات الاقتصادية عند غيرهم.

إن السياسة الاقتصادية العالمية عند الأقوياء هي سياسة الرعب من الفقر المحتمل وهي سياسة لا تلبث حتى تتخذ أخلاق المنهزمين الذين تتزايد مطالبهم بتزايد مكاسبهم . بل إن مطالبهم تتجاوز مكاسبهم رغم كثرة هذه الأخيرة ووفرتها

بالنسبة للأحجام العدوية عندهم . وبذلك يقع الأقوياء في " الدور " كما يقول المناطقة. فهم كلما حققوا كسباً زادت مطالبهم . وحينما تزيد المطالب يتزايد تكالبهم على الكسب.

هذه الظاهرة الخطيرة في أخلاق الاقتصاد العالمي عند الأقوياء هي التي تقف وراء الأزمات وتبرر خطط العدوان على الغير وتعطي الحروب صفتها الشرعية.

ولعل ما يجري اليوم في عالم الشعوب النامية من تبذير للطاقات وسوء تدبير للثروات وفساد في التنفيذ وإرخاص للذمم وتدخل في شؤون كل شعب من وراء طبقة من السياسيين المحترفين ومن حروب محلية تقف وراءها مصانع أجنبية وسياسات يضعها أصحاب الاقتصاد المتقدم ، أن يكون الآية والعلامة على صحة تشخيصنا للأخلاق الاقتصادية عند المتقدمين .

خامساً : يبقى أن نتساءل عن احتمالات النصر الذي يمكن أن تسجله الشعوب النامية وعن قدرتها على إزالة المعوقات المطروحة في طريقة نهضتها في مواجهتها للنيات الدولية السيئة ؟

الواقع أن الشعوب النامية واقفة في طريق مسدود ما دام أنها تربط مستقبلها بالأجنبي وتشد مصيرها إلى حسن النية في مخططي السياسة الدولية عبر المنظمات العالمية وغيرها . والخروج من هذا الطريق مشروط بنمو حس السيادة وإرادة الاستقلال في صنع التاريخ.

ولكن ماذا يعني حسن السيادة وإرادة الاستقلال؟

السيد مكسيم رودنسون يقول في المحاضرة التي أشرنا إليها في مقالات سابقة : " أن العرب ، كسائر الشعوب ، يودون مجاراة التيار الحديث ، وكسائر الشعوب أيضاً يودون ذلك دون التضحية بالأيديولوجيات القديمة . فانخراطهم في العالم الصناعي الحديث شيء محتم ، ولا يفيد الحنين إلى الماضي ، شاؤوا ذلك أم أبوا ، فالعرب دخلوا بالفعل في إطار العالم الحديث "..

أمام هذه الفقرة المنسوبة إلى مكسيم رودنسون نشعر أننا في صميم مشكلة هي مشكلة تعريف الأيديولوجيات.

فهل يقصد المحاضر بدعوته إلى تغيير الأيديولوجيات والانقلاب عليها ، التنكر للتراث القديم من فكر وأدب وعقيدة دينية ، وهو ما يعبر عنه بعبث " الحنين إلى الماضي " وعدم جدواه ؟ أم يقصد به ما ورد من بعد من دعوة إلى التضحية بالرفاه وببعض التقاليد والعادات التي تجمد النشاط العقلي وإرادة العمل ؟

إذا كان قصده هو رفض الحنين إلى الماضي فنحن لا نرى في هذا الحنين ما يتعارض مع خطة التحرر . بل نحن نجد العكس تماماً . فالحنين إلى الماضي لا يعني الجبن أو الجهل أو الجمود أو الخوف من سياسة التقشف . إنه على الضد من ذلك يعني تنمية الإحساس بالأصالة والتمكين لروح السيادة ومواجهة المشكلات بشجاعة والتضحية حتى الموت واقتحام سبل المعرفة والحركة في غير توقف والصبر في المكاره.

أوَليس أن التاريخ في ضمير الأجيال هو رمز للبطولات وآية على الرجولة ؟ ولماذا يدرس التاريخ في مدارس الشعوب المتقدمة كما يدرس في مدارس الشعوب النامية ؟ أليس الغرض منه هو التمكين لوحدة المجتمع وتغذية المثل التي نبع منها تاريخ البطولات وتقديم النماذج الصالحة لإعادة بناء النهضة؟

وإذا كان المقصود من الحنين إلى الماضي هو ماضي الجهالة والتخلف فهو ليس الماضي الذي يتحدث عنه تاريخ الشعوب الواعية.

كل المطلوب من العرب اليوم ليلحقوا بالدنيا الحديثة هو التحرر من الأخلاق التي سبق أن أخرجتهم من التاريخ، لا التحرر من التاريخ نفسه . وإذن فالمطلوب هو العودة إلى التاريخ وبالتالي إلى العقيدة ، أو الأيديولوجية ، كما يحلو لبعضهم أن يقول، التي صنعت هذا التاريخ ..

ونحن مع هذا التوضيح نذهب إلى تقرير أن التحرر يجب أن يكون تحرراً من أخلاق الفقر الروحي والكسل والخوف والجهل إلخ ... إنه التحرر من شهوة الترف والفكر التافه والأحلام الصغيرة. وهذا التحرر هو وحده الذي يحقق الغلبة على المعوقات الداخلية والخارجية.

إن الحدثة والعصرية في منطقنا السليم هي إعادة صنع الإنسان العربي في ضوء قيمه الروحية والثقافية التي حققت انتصاراته منذ سبعة آلاف عام، لا في ضوء الرفض لهذه القيم والتنكر لها.

والسيد مكسيم رودنسون ليس الإنسان الذي يستطيع أن يقول لنا هذه الحقيقة لأنه لا يشاركنا الانتماء إلى تراثها التاريخي . إنه يمثل التراث النقيض الذي كان ولا يزال مصدر كل متاعبنا النفسية والاجتماعية والاقتصادية . والطرف الذي وقف منا موقف الخصومة منذ فترات اللقاء الأولى بين الشرق العربي والغرب الأوروبي.

ولا ننسى بالإضافة إلى هذا كله أن تقرير الحقائق والوقائع غير كاف لإعادة صنع الحياة العربية . إن المعركة التي ترافقها ثقافة التوعية هي وحدها التي تقرر صنع الحياة وتشكلها على الصورة المطلوبة. وليس ما يجري اليوم من صدام دامٍ بين العرب والصهيونيين غير الآية على ضرورة التلازم والتطابق بين التوعية الفكرية ومعركة المصير.

لقد كان المفروض أن يجد المثقف العربي نفسه دون تدخل فكر أجنبي. فالفكر النابع من التجربة والخطأ هو وحده الطريق إلى الذات الأصيلة.